قواعد التفسير نشأتها وتطورها

Rules of tafseer its inception & evolution

د. سميع الحق*
نصر من الله**

ABSTRACT

Rules of Tafseer are basically concerned with understanding meaning of the Holy Qur'an and learn how to take advantage of it.

This article preliminary defines the importance of Rules of Tafseer of the Qur'an and also elaborates the different terminologies associated with rules of Tafseer and how these rules are made and developed with the passage of time. This paper also provides an insight into the previous and current studies carried out in the field of Rules of Tafseer. In the beginning, the Rules of Tafseer were considered as part of Usool-e-Fiqh, Tafseer and Qur'anic Science. The knowledge and awareness about Rules of Tafseer was actually accumulated from the Holy Qur'an, Hadith, teachings' of Sahabah (R.A), Usool-e-Fiqh, Arabic grammar, books of Quranic Science and books of Tafseer, while later on new books were introduced in 14th century.

Keywords: Rules of tafseer, Usool-e-Tafseer, Tafseer, Qur'anic Sciences, Usool-e-Fiqh.

* أستاذ مشارك ورئيس قسم التفسير وعلوم القرآن سابقا ، الجامعة الإسلامية العالمية، إسلام آباد
** محاضر بكلية الإمام أبي حنيفة للغة العربية والدراسات الإسلامية، بشاور

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وصحبه ومن والاه، وبعد:

فإن علم التفسير من أجلّ العلوم الشرعية، ومن أفضلها -إن لم يكن أفضلها- على الإطلاق، وذلك لعلاقته بأفضل كتاب أنزل من عند الله العليم الخبير، ولذا فإنه من السعادة العظيمة والمنزلة الرفيعة أن يشتغل المسلم بعلم التفسير دراسة وتدريساً، وتعلّماً وتعليماً، كما أنه من السذاجة جداً أن يرزق الله تعالى عبداً من عباده فهم كتابه ثم يشتغل بغيره، فلا شكّ أنه يحقّر ما عظّمه الله ويعظّم ما حقّره الله.

ولما احتلّ علم التفسير هذه المنزلة الرفيعة من بين العلوم الشرعية وأولاه الإسلام هذه الأهمية كان اعتناء العلماء الأجلاء به كبيراً —قديماً وحديثاً- فصنفوا في علم التفسير مصنفات عديدة وذلك في مجالات مختلفة من علم التفسير، وعندما دخل الغث والثمين في علم التفسير، واحتيج الأمر إلى التمييز بين ما هو مقبول من التفسير وما هو مردود منه، شمّر بعض المفسرين إلى وضع قواعد كلية لضبط هذا العلم وترتيبه وتنسيقه وتسمى بـ (قواعد التفسير) شأنها كشأن أصول الفقه أو القواعد الفقهية بالنسبة لعلم الفقه أو قواعد اللغة من نحو وصرف بالنسبة للغة العربية.

ولكن من المؤسف جداً أن كثيراً ممن يتعرضون لتفسير كلام الله تعالى-في هذا الزمن- لا يراعون هذه القواعد أثناء تفاسيرهم، ولذا تجدهم يجمعون بين التفاسير المقبولة والمردودة من غير تمحيص ولا تنقيد، وهذا إن دلّ على شيء فإنما يدلّ على بعدهم عن المنهجية الصحيحة لتفسير كلام الله تعالى وبالتالي عدم مراعاتهم للقواعد الأساسية التي وضعها العلماء لتفسير كلام الله تعالى، ولذا رأينا من الأهمية بمكان أن نسلّط الضوء على نشأة علم قواعد التفسير وكيفية تطوّره

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وازدهاره وأبرز المؤلفات في هذا العلم النبيل، وقد تناول البحث عدة عناصر كما يلي:

- التعريف بقواعد التفسير لغة واصطلاحاً
- الفرق بين قواعد التفسير وعلوم القرآن
- أهمية علم قواعد التفسير
- موضوع علم قواعد التفسير وغايته واستمداده
- نشأة علم قواعد التفسير وتطوره
- التأليف في علم قواعد التفسير
- المناهج المتبعة في التأليف في القواعد عموماً
- أنواع القواعد في التفسير

التعريف بقواعد التفسير لغة واصطلاحا:

لا بدّ للمركب الإضافي من أن يعرّف بجزئيه حتى يعرف المركب معرفة جزئية قبل أن يعرف كعَلَم لشيء مستقل، وبما أن مصطلح (قواعد التفسير) مركب من كلمتين هما: قواعد وتفسير، فلذا نحتاج أولاً أن نعرّف كل كلمة منهما على حدة، ثم نعرّف (قواعد التفسير) كعلم أو لقب لعلم مستقل، وبالله تعالى التوفيق:

أولاً: تعريف القواعد:

القواعد لغة: القواعد جمع قاعدة، وهي الأصل والأساس الذي يبنى عليه غيره، وكل قاعدة هي أصل للتي فوقها، ويستوي فيه الأمور الحسية والمعنوية، فقاعدة البيت: أساسه، ومنه قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ ﴾[البقرة: ١٢٧] وقاعدة الهودج: هي الخشبات الأربع المعترضة في أسفله، وقاعدة الباب: هي الأصل الذي تبنى عليه مسائله.[1]

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

القاعدة اصطلاحاً: ذكر العلماء في تعريف القاعدة اصطلاحاً عدة تعاريف، نختار منها ما يلي:

هي: "**الأمر الكلي الذي ينطبق على جزئيات كثيرة تُفهم أحكامها منه**".[٢] أو هي: "**حكم أغلبي ينطبق على معظم جزئياته**".[٣] أو هي: "**حكم كلي يتعرف به على أحكام جزئياته**".[٤] وهي كما تبدو تعاريف متقاربة، فالمعنى واحد والألفاظ متغايرة، والقاعدة بهذا المدلول المذكور تشمل كل ما يطلق عليه قاعدة في العلوم كافة، كالقاعدة الأصولية: " الأمر يقتضي الوجوب"، والقاعدة النحوية: " الفاعل مرفوع" والقاعدة الفقهية: "لا ضرر ولا ضرار" والقاعدة الترجيحية: " القول بالتأسيس مقدّم على القول بالتأكيد"، وغيرها من القواعد.

ثانياً: تعريف التفسير:

التفسير لغة: اختلف علماء العربية في أصل لفظ التفسير، فقال جماعة، منهم الأزهري وابن فارس وغيرهما: أنه من الفَسْر، بمعنى الإبانة وكشف المراد عن اللفظ وإيضاحه، والفَسْر هو: التفسير، وهو بيان وتفصيل للكتاب.[٥]

وقال آخرون: هو مقلوب من: سَفَرَ، ومعناه أيضاً: الكشف، يقال سفرت المرأة سفوراً: إذا ألقت خمارها عن وجهها. وجعل التفعيل للتكسير. وأياً كان الأمر فأصل المادة يدور على معنى البيان والكشف والإيضاح.[٦]

والتفسير اصطلاحاً: كما تعدّدت عبارات العلماء في التعريف اللغوي للتفسير، هكذا تعدّدت عباراتهم في التعريف الاصطلاحي له أيضاً، وهي تعريفات كثيرة، نختار منها ما يلي:

قال الإمام أبي حيان –رحمه الله – في تعريف التفسير: " **هو علم يبحث فيه عن كيفية النطق بألفاظ القرآن الكريم، ومدلولاتها، وأحكامها الإفرادية والتركيبية، ومعانيها التي تحمل عليها حال التركيب، وتتمات لذلك**".[٧] ونقله

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الإمام الألوسي في تفسيره،[٨] ثم شرحه، وكأنه ارتضاه، ولا يخفى ما في هذا التعريف من العموم والشمول، وبهذا لا يكون مانعاً كما يشترط في التعاريف.

وعرّفه الإمام الزركشي –رحمه الله– بقوله: " **علم يعرف به فهم كتاب الله المنزل على نبيه محمد صلى الله عليه وسلم، وبيان معانيه واستخراج أحكامه وحكمه**".[٩]

وخلاصة القول أن التفسير هو بيان كلام الله سبحانه وتعالى المنزل على محمد صلى الله عليه وسلم بقدر الطاقة البشرية.

ثالثاً: تعريف قواعد التفسير:

وأما تعريف قواعد التفسير باعتباره لقباً على فنّ معيّن من العلم فهو: "**الأحكام الكلية التي يتوصل بها إلى استنباط معاني القرآن العظيم ومعرفة كيفية الاستفادة منها**".[١٠]

وبهذا صار علم قواعد التفسير علماً مستقلاً من علوم القرآن، له موضوعاته ومباحثه وغايته وغرضه وفائدته حسب ما سنذكره فيما بعد.

الفرق بين قواعد التفسير وعلوم القرآن

مصطلح قواعد التفسير مرادف لمصطلح (أصول التفسير) ويعتبر من أشرف وأهمّ العلوم التي تتعلق بالقرآن الكريم، والنسبة بين قواعد التفسير وبين علوم القرآن هي نسبة الجزء إلى الكلّ، وقد تطلق قواعد التفسير على جملة علوم القرآن،وهذا إما أن يكون من باب إطلاق الجزء على الكلّ، وإما لكون علوم القرآن والكتب المصنفة في ذلك تشتمل على قواعد كثيرة من قواعد التفسير منثورة في أبوابه المختلفة.

والخلاصة أن علوم القرآن هي عبارة عن جميع العلوم التي تتعلق بالقرآن من وجوه شتى، أما قواعد التفسير فالمراد بها تلك الكليات والضوابط المخصوصة التي سبق في التعريف.[١١]

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

أهمية علم قواعد التفسير وفوائده

لما تشعبت العلوم وتناثرت تفاصيلها وجزئياتها، بحيث أصبح من الصعوبة بمكان، الإحاطة بجزئيات فن واحد من فنون العلم فضلاً عن الإحاطة بجزئيات الفنون المختلفة، عمد العلماء إلى استقراء وإبراز الأصول الجامعة والقضايا الكلية التي ترجع إليها تلك الجزئيات تيسيرًا للعلم، وإعانة على حفظ ما تناثر من جزئياته، مع اختصار لكثير من الجهد والوقت، إضافة إلى تربية ملكة الفهم، وضبطه بضوابط تحجزه عن الخطأ.

إذن هذه هي التي تجعل معرفة القواعد عمومًا وقواعد التفسير خصوصًا أمرًا مهمّاً.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية – رحمه الله تعالى – : "لابد أن يكون مع الإنسان أصول كلية ترد إليها الجزئيات ليتكلم بعلم وعدل،- حتى لا يفرق بين مسألتين متماثلتين بسبب أنه لا يملك القاعدة التي تجمع ما تفرق – ثم يعرف الجزئيات كيف وقعت وإلا فيبقى في كذب وجهل في الجزئيات وجهل وظلم في الكليات فيتولد فساد عظيم".[١٢]

ويقول الزركشي – رحمه الله تعالى – في المنثور في القواعد: " أما بعد: فإن ضبط الأمور المنتشرة المتعددة في القوانين المتحدة. هو أوعى لحفظها، وأدعى لضبطها، وهي إحدى حكم العدد التي وضع لأجلها، والحكيم إذا أراد التعليم لا بد أن يجمع بين بيانين: إجمالي تتشوَّف إليه النفس، وتفصيلي تسكن إليه".[١٣]

هذا من جهة، ومن جهة أخرى فإن أهميتها تعرف بمعرفة أهمية موضوعها وهو القرآن الكريم؛ إذ هو أصل العلوم وفيه خير العاجل والآجل، فإذا فهمه العبد فهمًا صحيحًا حاز علمًا عظيمًا لا يدانيه علم البتة. ولذا كان الرجل إذاحفظ سورة البقرة وآل عمران يعظم في أعين الصحابة قال أنس – رضي الله عنه –: (وكان الرجل إذا قرأ البقرة وآل عمران جدّ فينا). يعني عَظم.[١٤]

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

فمن عرف قواعد التفسير حصلت له ثلاث فوائد:

١- تنفتح له معاني قرآنية كثيرة جدًّا.

٢- يصير بيده آلة يتمكن بها من الاستنباط والفهم.

٣- يصبح عنده ملكة تجعله يحسن اختيار الأقوال المختلفة، حتى ماكان مختلفًا اختلاف تنوّع.

٤- ضبط التفسير بقواعده الصحيحة.[١٥]

موضوع علم قواعد التفسير وغايته وشرفه واستمداده

موضوعه: موضوع هذا العلم هو القرآن الكريم وإذا أردنا تحري الدقة فإننا نقول موضوعه تفسير القرآن.

غايته : فهم معاني القرآن كي تُمتثل فيحصل الفوز في الدارين. وليس لتحصيل بعض الفوائد والمكاسب، وإنما الامتثال.

شرفه : يمكن أن نلخص هذه القضية في ثلاثة أوجه:

١- من جهة الموضوع، إذ موضوعه كلام الله تعالى الذي هو أجلّ الكتب وأعظمها وأشرفها، والعلماء يقولون: شرف العلم بشرف المعلوم.

٢- من جهة مقصوده وغايته وهي الاعتصام بحبله للوصول إلى السعادتين.

٣- من جهة عظم الحاجة إليه إذ إن كل فلاح ديني أو دنيوي مفتقر إلى العلوم الشرعية وهي متوقفة على العلم بكتاب الله تعالى إذ هو أصلها.[١٦]

استمداد قواعد التفسير:

نقصد بالاستمداد ما استمدت وأخذت منه قواعد التفسير من المصادر، ومن خلال التتبع والاستقراء نجد أن قواعد التفسير مستمدة مما يأتي :

١- القرآن الكريم: وذلك عن طريق استقراء بعض القضايا فيه. فمثلاً: كل (أليم) في القرآن فهو بمعنى مؤلم أو موجع. وكل (كلاّ) في القرآن بعد أمر منكر

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

فهو للردع، وكل (كلاّ) لم يأتي بعدها أمر منكر فهي بمعنى حقًّا.

٢- السنة النبوية:

٣- بعض ما أثر عن الصحابة رضي الله عنهم في الكلام على التفسير، بحيث إنه يمكن أن نعرف منه بعض الأصول التي يسيرون عليها في استنباط المعاني .

٤- أصول الفقه لأن حقيقتها استقراء كليات الأدلة حتى تكون نصب عيني المجتهد، وسهلة الملتمس لدى الطالب، وينبغي الاهتمام بهذا العلم لأنه يؤصل علوم الشريعة، ويضبطها ويعصمنا بإذن الله من الزلل، ويعطينا القدرة على المحاجة والمدافعة عن الحق الذي نعتقده بطريقة مؤصلة.

٥- اللغة والبيان والنحو والتصريف، لأن علوم اللسان هادية للصواب في الكتاب والسنة فحقيقتها إذًا أنها فقه التعبد بالألفاظ الشرعية الدالة على معانيها كيف تؤخذ وتؤدى.

٦- كتب علوم القرآن ، مثل البرهان والإتقان، ومقدمات بعض كتب التفسير كالتحرير والتنوير، ومقدمة كتاب التسهيل لابن جُزي الكلبي، حيث ذُكرت فيها جملة من قواعد التفسير.

تنبيه:

لم نذكر كتب التفسير مع أنها مشحونة بالقواعد بسبب أن وجود القواعد فيها إنما هو عبارة عن تطبيقات للقواعد, وليس المقصود من ذكرها تقريرها، كما هو الحال في الفقه مثلا, فإن كتبه مشحونة بالقواعد الأصولية ومع ذلك لا تعتبر كتب الفقه مادة يستمد منها قواعد الأصول.[١٧]

نشأة علم قواعد التفسير وتطوره

الحديث عن نشأة قواعد التفسير يكون من وجهين:

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الأول : من جهة كونها مفرقة ومتناثرة في مصادرها التي تستمد منها. فالكلام فيها هو الكلام عن نشأة بعض العلوم وتطورها كأصول الفقه وعلوم القرآن وعلوم اللغة ... وهذا بالطبع ليس هو المقصود منها.

الوجه الثاني : نشأتها كفن مستقل مدوّن (حسب المصطلح الخاص به) وهذا بعد التتبع لم نقف فيه على القدر الذي يتناسب مع ماله من أهمية, وإنما وقفنا في بعض الفهارس على ثلاثة كتب معنونة بـ " قواعد التفسير " أو ما يقارب هذه العبارة (وسنذكرها تحت عنوان التأليف في علم قواعد التفسير)؛ لأن مؤلفات هذا العلم كانت متناثرة وقليلة جدًّا، ولكن في الأزمنة المعاصرة كثرت عناية الناس به، كما توجد بعض الكتب المعاصرة ذات العناوين المشابهة أو المطابقة – ظاهرا – للموضوع بغض النظر عن مضمونها .

الحاصل أن هذا الفن لم يتوفر لدينا مؤلفات مستقلة به فلا يمكن أن نفصل الحديث عن نشأته، لكن يمكن أن نقول إن بواكيير هذا العلم قد ظهرت في العهد النبوي على يد أفضل الخلق عليه السلام ثم على يد أئمة التفسير من بعد النبي صلى الله عليه وسلم من الصحابة والتابعين رضي الله عنهم أجمعين فكانت نشأة قواعد التفسير مواكبة لنشأة علم التفسير إلا أنها كانت متفرقة ومنثورة ضمن كتب التفسير ثم ازدادت بازدياد كتب التفسير .

- أما في القرن الثاني الهجري فقد دخلت قواعد التفسير طورًا جديدًا إذ ظهرت جملة منها مدونة في أول كتاب ظهر في أصول الفقه وهو " الرسالة للإمام الشافعي " رحمه الله وكذا كتاب " أحكام القرآن " له أيضاً.
- و أما في القرن الثالث والرابع فقد اتسع نطاق التدوين لقواعد التفسير في كتب التفسير والأصول واللغة كـ " تأويل مشكل القرآن " لا بن قتيبة وكتاب "جامع البيان " للإمام الطبري "وأحكام القرآن" للطحاوي "وأحكام القرآن" للجصاص.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

- وأما في القرنين الخامس والسادس فقد ظهرت مؤلفات كثيرة في التفسير وأصول الفقه واللغة أمثال "الإحكام" لابن حزم "والبرهان" للجويني "وأصول الفقه "للسرخسي والمستصفى للغزالي والمحرر الوجيز لابن عطية وفنون الأفنان لابن الجوزي وغيرها.
- وأما في القرنين السابع والثامن فقد ظهرت مؤلفات جديدة حافلة بالقواعد كمؤلفات شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله وخاصة رسالته المطبوعة باسم (المقدمة في أصول التفسير) ومؤلفات تلميذه ابن القيم، والبحر المحيط لأبي حيان، وكتفسير القرطبي، وتفسير ابن كثير، ومثل البرهان في علوم القرآن للزركشي، والمنثور في قواعد الفقه والبحر المحيط في أصول الفقه له أيضاً، ومؤلفات ابن رجب، والإتقان في علوم القرآن للسيوطي، والتحبير في علم التفسير له أيضاً، وبعده الفوز الكبير في أصول التفسير للشاه ولي الله الدهلوي، وكثيرين بعدهم، وهذه الكتب من أصول التفسير أو أصول الفقه أو علوم القرآن لكن يذكر فيها مؤلفوها قواعد كثيرة من قواعد التفسير.
- وهكذا ظلّت قواعد التفسير مبثوثة في بطون الكتب في القرون الخمسة اللاحقة ما بين كتب التفسير وأصوله وقواعد الفقه وأصوله.
- وفي القرن الرابع عشر الهجري وقفنا على تدوين مستقل في قواعد التفسير وهو كتاب القواعد الحسان لتفسير القرآن للعلامة عبد الرحمن بن سعدي رحمه الله.[١٨]

ومن هنا يمكننا القول بأن لَبِنات علم قواعد التفسير كعلم مستقل وضعت في القرن الرابع عشر الهجري، وفيه بدأ التدوين في هذا العلم.

التأليف في علم قواعد التفسير

وفي هذا الموضع سنذكر كل ما وقفنا عليه من الكتب المعنونة بـ (قواعد التفسير) أو ما يقارب هذه العبارة حسب الترتيب الزمني، ثم نتحدث عن مضمون هذه الكتب إن أمكن:

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

١- (**قواعد التفسير**) تأليف أبي عبد الله محمد بن أبي القاسم الخضر بن محمد ابن الخضر بن علي بن عبد الله المعروف بإبن تيمية الحراني الملقب بـ فخر الدين بن الخطيب الواعظ الفقيه الحنبلي ولد في حران سنة ٥٤٢هـ وتوفي بها سنة ٦٢١هـ وهذا الكتاب لم يصل إلينا وإنما ذكره صاحب كشف الظنون بالعنوان المشار إليه .

٢- (**المنهج القويم في قواعد تتعلق بالقرآن الكريم**) تأليف شمس الدين ابن الصائغ محمد بن عبد الرحمن الحنفي توفي عام ٧٧٧هـ وقد ذكر صاحب كشف الظنون ولم يذكر شيئا من المعلومات عنه فالله أعلم .

٣- (**قواعد التفسير لابن الوزير**) " مخطوط " هكذا ذكر في فهرس التيمورية وابن الوزير المشار إليه هنا هو محمد بن إبراهيم الوزير اليماني توفي عام ٨٤٠ هـ رحمه الله تعالى، وهو في الأصل فصل من كتاب " إيثار الحق على الخلق " للمؤلف نفسه مطبوع وهو الفصل الواقع ما بين ص ١٥٦ : ١٦٧ بعنوان فصل في الإرشاد إلى طريق المعرفة لصحيح التفسير وقد تحدث فيه المؤلف عن طرق التفسير ومراتبه وأنواعه وبهذا لا يعتبر الكتاب من المؤلفات في قواعد التفسير حسب الاصطلاح الخاص.

٤- (**التيسير في قواعد علم التفسير**) تأليف محمد بن سليمان الكافيجي توفي ٨٧٩ هـ وهو كتاب في علوم القرآن. وقد طبع هذا الكتاب عام ١٤١٠هـ بتحقيق: ناصر بن محمد المطرود.

٥- (**القواعد الحسان لتفسير القرآن**) تأليف الشيخ عبد الرحمن بن ناصر السعدي توفي سنة ١٣٧٦ هـ وقد طبع الكتاب طبعات عدة وذكر فيه المؤلف رحمه الله ٧١ قاعدة مع ذكر أمثلتها ويبدوا أن القواعد التي ذكرها المؤلف رحمه الله على أنواع:

- فمنها قواعد في التفسير حقيقة وتقارب العشرين قاعدة.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

• ومنها ما يصلح أن يسمى قواعد قرءانية وليست من قواعد التفسير كالتي تعرف من خلال تتبع منهج القرآن في بعض القضايا كمقابلة الوعد بالوعيد وأهل الإيمان بضدهم وهكذا

• ومنها فوائد ولطائف وليست بقواعد ومنها قواعد فقهية مستنبطة من القرآن.

وفي الجملة يمكن أن نقول إن هذا الكتاب قد وضعه مؤلفه – رحمه الله – في قواعد التفسير إلا أنه توسع فيما اختاره من القواعد فعد معها كثير من القواعد والفوائد المستنبطة من القرآن التي لا تدخل في قواعد التفسير.

٦- (**أصول التفسير وقواعده**) لخالد بن عبد الرحمن العك وهو مطبوع وموضوعه علوم القرآن.

٧- (**قواعد التدبر الأمثل لكتاب الله عز وجل**) تأليف عبد الرحمن حبنّكة الميداني وهو كتاب مطبوع يقع في ٨٤٠ صفحة مع الفهارس وقد ذكر فيه المؤلف أمورا يراعيها القارئ لكتاب الله كي يحصل له التدبر وهذه الأمور عبارة عن فوائد وتوجيهات ووصايا مع الإشارة إلى بعض الحكم لمتعلقة بنصوص التنزيل، وفيه أشياء قليلة تناسب قواعد التفسير لكنها تحتاج إلى ترتيب وتنسيق.

٨- (**قواعد وفوائد لفقه كتاب الله تعالى**) تأليف عبد الله بن محمد الجوعي وهو كتاب مطبوع يقع في ١٤٤ صفحة مع الفهارس وهذا الكتاب يتضمن —كما هو ظاهر من العنوان — لطائف وفوائد مستنبطة من القرآن الكريم إضافة إلى بعض قواعد التفسير .أشار المؤلف في مقدمة كتابه إلى أنه قيدها من كتب متفرقة إلى أن قال: كثير من الفوائد لم أعزها وذلك لأنها مما علق في الذهن مما قرأته أو سمعته من بعض العلماء فيتعذر عزوه..ا.هـ

وهذا الذي لا يعزوه المؤلف هو الغالب على الكتاب إذ العزو فيه قليل جداً، وإنما ذكرت هذا الكتاب والذي قبله إتماما للموضوع وإلا فإن الفائدة منهما في موضوعنا قليلة، والله أعلم.[١٩]

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وأخيراً كتبت ثلاث رسائل فريدة في قواعد التفسير وهي:

٩- الأولى: (**قواعد التفسير جمعاً ودراسة**) للدكتور خالد بن عثمان السبت في مجلدين، وهي رسالة دكتوراه، مقدّمة في الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، وهي من أجمع الكتب في علم قواعد التفسير وأفضلها، فهو يذكر القاعدة ثم يشرحها ثم يأتي بالأمثلة التطبيقية من كتب التفسير لهذه القاعدة.

١٠- الثانية: (**قواعد الترجيح عند المفسرين**) لحسين بن علي الحربي في مجلدين، وهي رسالة ماجستير مقدمة في جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، وموضوع الثانية أخص من الأولى؛ إذ هي في القواعد الترجيحية.

١١- والثالثة: (**فصول في أصول التفسير**) وهو كتاب صغير للدكتور مساعد بن سليمان الطيار، وهو أيضاً لا يقلّ أهمية من الرسالتين السابقتين في موضوع قواعد التفسير، حيث ذكر الأصول العامة للتفسير في بداية الكتاب ثم ذكر بعض القواعد المهمة للتفسير وزيّنها بالأمثلة التطبيقية.

المناهج المتبعة في التأليف في القواعد عموماً

لما كان التأليف في قواعد التفسير ضئيلا أو شبه منعدم، أصبح من المتعذر الحديث عن المناهج المتبعة فيه ولذا سيكون الحديث هنا عن مناهج العلماء في التأليف في القواعد عموما لأن هذا البحث عن "القواعد " فنقول: لم يقتصر العلماء الذين ألفوا في القواعد على طريقة واحدة بل تعددت طرائقهم ومناهجهم في التأليف في هذا الفن فمن هذه المناهج:

الترتيب الهجائي: من المعلوم أن عدد من القواعد تتعلق بأبواب متنوعة فإذا وضع الكتاب على طريقة الأبواب فإن هذا سيؤدي إلى إغفال القاعدة – المرتبطة بأكثر من باب – في موضعها الآخر أو تكرارها فتفاديا لهذا الأمر انتهج بعض المؤلفين في القواعد نهج الترتيب الهجائي . وهذه الطريقة ليست سليمة، لأن لفظ القاعدة ليست بيتًا شعريًّا ولا نصًّا شرعيًّا، فلا نعرف أين وضع القاعدة، وممن سار على

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

هذا المنهج الزركشي في المنثور، وأبو سعيد الخادمي في مجامع الحقائق، والبركتي في القواعد الفقهية.

الترتيب الموضوعي: المنظور فيه إلى شمولية القاعدة وإلى الاتفاق والخلاف فيها.

فجعلوا القواعد في الجملة على ثلاثة أقسام:

القسم الأول: قواعد كلية يرجع إليها أغلب المسائل.

القسم الثاني: قواعد كلية يرجع إليها بعض المسائل.

القسم الثالث: قواعد خلافية وغالبا ما تكون مبدوءة بـ (هل).

وعلى هذا جرى السبكي في الأشباه والنظائر وابن نُجيم والسيوطي – رحمهما الله – في كتابيهما الأشباه والنظائر، وهما في قواعد الفقه، لكن ابن نجيم في قواعد الفقه عند الحنفية، والسيوطي في قواعد الفقه.

ذكر القواعد دون ترتيب معين: وعلى هذا أكثر الذين دوّنوا في قواعد التفسير يذكرونها هكذا منتشرة، مثل ابن رجب في كتابه (القواعد الفقهية) والونشريسي في كتابه (إيضاح المسالك إلي قواعد الإمام مالك) وابن عبد الهادي في (مغني ذوي الأفهام) و كذلك السيوطي في الإتقان في قواعد التفسير، وكذلك الزركشي في البرهان في قواعد التفسير، ومن المعاصرين: الشيخ عبد الرحمن السعدي في كتابه (القواعد الحسان لتفسير القرآن) و (القواعد والأصول الجامعة) في الفقه.

الترتيب على طريقة التبويب: كالأبواب الفقهية وهذه هي الطريقة المشابهة للمقاصد المدونة في هذا الكتاب، وممن سار على هذا الأسلوب المقري المالكي في كتابه (القواعد) ومحمد البقوري في (ترتيب فروق القرافي) والشيخ عظوم في (المسند المذهب في قواعد المذهب) محمود حمزة في (الفرائد البهية في القواعد والفوائد الفقهية) والبكري في (الاستغناء في الفرق والاستثناء) وابن خطيب الدهشة في (مختصر من قواعد العلائي وكلام الأسنوي)، وهي الطريقة التي مشى عليها الدكتور خالد بن عثمان السبت في كتابه (قواعد التفسير جمعاً ودراسة) فذكر بابًا في

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

أسباب النزول وتحته القواعد المتصلة به، وكذلك أساليب العرب، ونحو ذلك، وهذه أضبطها في الجملة.[٢٠]

أنواع القواعد في التفسير

يمكن أن ننوع القواعد بالنظر إلى ناحيتين:

الأولى: شمولية القاعدة للأبواب المتعددة .

الثانية: ما تحظى به القاعدة من وفاق أو خلاف .

فالقواعد بالنظر الأول على نوعين:

أحدهما: قواعد تدخل في أبواب مختلفة تقل أو تكثر لكنها لا تقتصر على باب واحد ومنها ما يتعلق بعامة الأبواب أو كلها. مثل لا ضرر ولا ضرار

الثاني: قواعد تختص بباب واحد وهذه أيضا تتفاوت فمنها ما يضم جزئيات كثيرة جدا ومنها الذي يجمع قدرا قليلا من الجزئيات. مثل: العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب. هذه تختص بباب واحد هو أسباب النزول.

ثم إن نظرنا إلى القواعد بالنظر الثاني وهو الملحوظ فيه جانب الوفاق والخلاف نجد أنها على قسمين كذلك :

الأول: القواعد التي حصل الوفاق عليها، أو وقع فيها شيء من الخلاف لكنه ضعيف وهي التي يُعبر عنها غالبا بجمل خبرية وبصيغة الجزم كقولنا : التأسيس مقدم على التوكيد، والعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب.

الثاني: القواعد التي اشتهر فيها الخلاف وقوي وهي التي يعبر عنها غالبا بصيغ الاستفهام كقولنا : هل الأمر يقتضي التكرار؟ أو قولنا : هل الزيادة على النص نسخ؟.[٢١]

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وللقواعد باعتبار الغاية تقسيم آخر وهو: أنها على نوعين:

الأول: قواعد عامة يستفاد منها في فهم القرآن؛ كقاعدة : " المفرد المضاف يفيد العموم " كقوله تعالى:﴿ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴾[٢٢].وقوله: ﴿ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ﴾[٢٣] المقصود:نعم الله .

الثاني: قواعد ترجيحية يستفاد منها في الموازنة بين الأقوال، ومعرفة الراجح منها والمرجوح؛ كقاعدة : " القول الذي تؤيده قرائن السياق مرجح على ما خالفه" ، كقوله تعالى:﴿ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ ﴾[٢٤] أي: بعلمه، قالوا: لأن الله افتتح الآية بالعلم وختمها بالعلم.[٢٥] وقوله تعالى:﴿ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا ﴾[٢٦]

قال ابن جرير":وأوْلى الأقوال في ذلك بالصواب قول من قال: معنى ذلك: ((أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا)) [٢٧] من المطر والنبات، ففتقنا السماء بالغيث والأرض بالنبات، وإنما قلنا: ذلك أوْلى بالصواب؛ لدلالة قوله تعالى: ((وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ)) [٢٨] على ذلك.[٢٩]

الخاتمة

هذا ما يسّر الله تعالى لنا تحريره من كتابة بحث موجز حول نشأة قواعد التفسير وتطورها، ونحمد الله تعالى العلي القدير أن وفقنا لكتابة هذه الصفحات، فإنه نعم المولى ونعم النصير، وبعد:

فمن خلال المعايشة مع قواعد التفسير عدة أيام توصلنا إلى عدة نتائج نلخصها في النقاط التالية:

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

- إن المراد من قواعد التفسير هي: **الأحكام الكلية التي يتوصل بها إلى استنباط معاني القرآن العظيم ومعرفة كيفية الاستفادة منها**. وهي جزء من علوم القرآن الكثيرة.
- إن هذا العلم من أشرف العلوم وأعلاها، لكونه يتعلق بالقرآن الكريم وتفسيره، بل هو ميزان علم التفسير.
- تستمد قواعد التفسير من القرآن الكريم نفسه، ومن السنة النبوية ومن أقوال الصحابة والتابعين رحمهم الله كما تستمد من أصول الفقه، وقواعد اللغة العربية وكتب علوم القرآن ومقدمات كتب التفسير.
- نشأ علم قواعد التفسير بداية ضمن باقي العلوم كأصول الفقه وعلم التفسير وعلوم القرآن وعلوم اللغة، وذلك عبر القرون الثلاثة عشر المنصرمة، حتى تمّ تدوين قواعد التفسير كعلم مستقل في مؤلفات خاصة في القرن الرابع عشر الهجري.
- كثرت المؤلفات المعنونة بقواعد التفسير إلا أن معظمها ليست في قواعد التفسير، بل هي أشبه ما تكون بكتب علوم القرآن والتفسير.
- لقد اتبع من ألّف في القواعد عامّة مناهج مختلفة فمنهم من رتّبها حسب حروف المعجم، ومنهم من رتّبها حسب الأبواب والموضوعات، ومنهم من لم يراع شيئاً من ذلك فجعلها من غير ترتيب.
- لقواعد التفسير أنواع متعددة، ويمكن تلخيصها في قواعد عامة، وقواعد خاصة، أو قواعد عامة وقواعد الترجيح، ويقصد بالقواعد العامة القواعد التي تشمل التفسير والعلوم الأخرى كالفقه وأصوله، والقواعد الخاصة هي القواعد التي تخص علم التفسير، وأما القواعد الترجيحية فهي التي يستفاد منها في الموازنة والمقارنة بين الأقوال المتعارضة ومن ثمّ ترجيح بعضها على بعض.

هذا ما توصلنا إليه من النتائج، فإن كان صواباً فمن الله وإن كان غير ذلك فمنا ومن الشيطان، والله تعالى منه بريء، ورحم الله امرءاً أهدى إلينا عيوبنا.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وأخيراً نسأل الله عز وجل أن يعفو عنا الزلل، وأن يغفر لنا خطايانا وإسرافنا في أمرنا، وأن يرحمنا، وأن يقبل عنا هذا الجهد المتواضع، وأن ينفعنا به والمسلمين. آمين

الهوامش والإحالات

(١) انظر: معجم مقاييس اللغة للإمام أحمد بن فارس بن زكرياء القزويني الرازي، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، دار الفكر، ١٣٩٩هـ – ١٩٧٩م (مادة: قعد) ٥/١٠٩، ولسان العرب لابن منظور الإفريقي، إعداد وتصنيف: يوسف خياط، دار لسان العرب، بيروت (مادة: قعد) ٣/ ١٢٨، وتاج العروس من جواهر القاموس لمحمد مرتضى الزبيدي، دار مكتبة الحياة، بيروت (مادة: قعد) ٢/ ٤٧٣

(٢) شرح الكوكب المنير لمحمد بن أحمد الفتوحي الحنبلي المعروف بابن النجار، تحقيق: محمد الزحيلي، نزيه حماد، مركز البحث العلمي وإحياء التراث بجامعة أم القرى. الطبعة الأولى: ١٤٠٢هـ ١/ ٣٠

(٣) المدخل الفقهي العام لمصطفى أحمد الزرقاء، دار الفكر، دمشق، الطبعة التاسعة: ١٩٦٨م. ٢/ ٩٤٦

(٤) قواعد التفسير جمعاً ودراسةً للدكتور خالد بن عثمان السبت، دار ابن عفان، القاهرة، الطبعة الثالثة: ١٤٣٢هـ ٢٠١١م ١/ ٢٣

(٥) انظر: تهذيب اللغة للإمام أبي منصور محمد بن أحمد الأزهري، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، دار القومية العربية للطباعة، ١٣٨٤هـ. ١٢/ ٤٠٧، ومعجم مقاييس اللغة لابن فارس ٤/ ٥٠٤، ولسان العرب لابن منظور ٥/ ٥٥، (مادة: فسر).

(٦) انظر: مفردات ألفاظ القرآن للراغب الأصفهاني، تحقيق: صفوان عدنان داوودي، دار القلم، دمشق، الطبعة الأولى: ١٤١٢هـ ص ٤١٢، والبرهان في علوم القرآن للإمام بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشي، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعرفة، بيروت، الطبعة الثانية، ١٣٩٠هـ ٢/١٤٧

(٧) البحر المحيط للإمام أبي حيان محمد بن يوسف الأندلسي الغرناطي، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، الطبعة الثانية: ١٤١٣هـ ١/٢٦

(٨) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، للإمام شهاب الدين السيد محمود الألوسي، دار الفكر، لبنان بيروت، ١٤٠٨هـ ١/٤

(٩) البرهان في علوم القرآن للزركشي ١/١٣

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

(١٠) قواعد التفسير جمعاً ودراسة لخالد السبت ١/٣٠

(١١) انظر: المرجع السابق ١/ ٣٣

(١٢) مجموع الفتاوى للإمام أحمد بن عبد الحليم ابن تيمية، جمع وترتيب: عبد الرحمن القاسم العاصمي، طبعة الرياض. (١٩/٢٠٣)

(١٣) المنثور في القواعد للإمام بدر الدين محمد بن بهادر الزركشي، تحقيق: فائق أحمد محمود، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، الكويت، الطبعة الأولى: ١٤٠٢هـ (١/ ٦٥ – ٦٦)

(١٤) مسند الإمام أحمد بن حنبل، تحقيق: شعيب الأرنؤوط– عادل مرشد وآخرون، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى: ١٤٢١هـ ٢٠٠١م. ١٩/ ٢٤٧

(١٥) انظر: قواعد التفسير جمعاً و دراسة ١/ ٣٦–٣٨

(١٦) انظر: المرجع السابق ١/ ٣٩

(١٧) انظر: المرجع السابق ١/ ٤٠–٤١

(١٨) انظر: المرجع السابق ١/ ٤١–٤٣

(١٩) انظر: المرجع السابق ١/٤٣–٤٥

(٢٠) انظر: المرجع السابق ١/ ٤٦–٤٧

(٢١) انظر: المرجع السابق ١/ ٤٧–٤٨

(٢٢) الضحى:١١

(٢٣) إبراهيم:٣٤

(٢٤) المجادلة:٧

(٢٥) انظر: قواعد الترجيح عند المفسرين لحسين بن علي الحربي، دار القاسم، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤١٧هـ ١٩٩٦م ١/ ٣٠١

(٢٦) الأنبياء:٣٠

(٢٧) الأنبياء:٣٠

(٢٨) الأنبياء:٣٠

(٢٩) جامع البيان عن تأويل آي القرآن للإمام محمد بن جرير الطبري، تحقيق: محمود شاكر، دار المعارف، مصر، الطبعة الثانية. ١٧/ ١٩

****

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com